تفسير سورةُ الشعراء
من آية (176) إلى آية (191)
اللقاء العاشر

المعنى الإجمالي من آية (160) إلى آية (175):

يَحكي الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ لوطٍ عليه السلامُ مع قَومِه، فيقولُ: كذَّبتْ قَومُ لُوطٍ بجَميعِ رسُلِ اللهِ بتَكذيبِهم نبيَّهم لوطًا، حينَ قال لهم أخوهم لوطٌ: ألَا تتَّقون اللهَ، إنِّي لكم رسولٌ مِن الله، أمينٌ على وَحْيه، فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم جزاءً ولا ثوابًا؛ ما ثوابي إلَّا على اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى أنَّ نبيَّه لوطًا عليه السلامُ نَهَى قومَه عن أبرزِ الرذائلِ المتفشِّيةِ فيهم، وأنَّه قال لهم: أتُواقِعونَ الذُّكورَ مِن النَّاسِ ولم يَسبِقْكم إلى فعلِ ذلك أحدٌ مِن الخَلقِ، وتَتركونَ ما خلَقَه لكم ربُّكم مِن نِسائِكم؟! بل أنتم قَومٌ مُجاوِزونَ الحَدَّ في معصيةِ اللهِ. فقال قَومُ لوطٍ له متوعِّدينَ: لَئِنْ لم تَنْتَهِ -يا لوطُ- عن إنكارِك علينا إتيانَ الذُّكورِ، لَتَكونَنَّ مِن المطرودينَ مِن قَريتِنا. قال لوطٌ لهم: إنِّي لِما تَعمَلونَه مِن الفاحِشةِ مِن المبغِضين التَّاركين، ثمَّ دعا ربَّه عزَّ وجلَّ قائلًا: رَبِّ نَجِّني وأهلي مِن العذابِ الذي تُنزِلُه على قَومي، فأجاب الله تعالى دعاءَه، قال سبحانَه: فنجَّيْناه وأهلَه كُلَّهم، إلَّا زوجَتَه العَجوزَ أهلَكْناها مع قَومِها الباقينَ في العذابِ، ثمَّ أهلَكْنا قومَ لُوطٍ، وأنزَلْنا عليهم حجارةً مِن السَّماءِ، فبِئسَ مطَرُ القَومِ الذين أنذَرَهم نبيُّهم.

إنَّ في إهلاكِ قَومِ لُوطٍ لَدَلالةً واضِحةً على صِدقِ رَسولِه، وعِبرةً لِمن يعتبِرُ، وما كان أكثَرُ قَومِ لوطٍ مُؤمِنينَ، وإنَّ رَبَّك -يا مُحَمَّدُ- لهو العزيزُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعذابِه.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿176﴾

(كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ) أي: كذَّب أصحابُ الشَّجَرِ الملتَفِّ بجَميعِ رُسُلِ اللهِ. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: (أصحابُ الأيكةِ هم أهلُ مَدْيَنَ على الصَّحيحِ، وكان نبيُّ الله شعيبٌ مِن أنفُسِهم، وإنَّما لم يقُلْ هنا: «أخوهم شعيبٌ»؛ لأنَّهم نُسِبوا إلى عبادةِ الأيْكةِ، وهي شجرةٌ. وقيل: شجَرٌ ملتَفٌّ كالغَيضةِ كانوا يَعبُدونها... والصَّحيحُ أنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ، وُصِفوا في كلِّ مقامٍ بشَيءٍ؛ ولهذا وعَظَ هؤلاء وأمَرَهم بوفاءِ المكيالِ والميزانِ، كما في قصَّةِ مَدْيَنَ سواءً بسواءٍ؛ فدلَّ ذلك على أنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ).

قال ابن عاشور: (الأظهرُ أنَّ أهلَ الأيْكةِ قبيلةٌ غيرُ مَدْيَنَ... والذي يشهدُ لذلك ويرجِّحُه أنَّ القرآنَ لَمَّا ذكَر هذه القصةَ لأهلِ مَدْيَنَ وصَف شعيبًا بأنَّه أخوهم، ولَمَّا ذكَرها لأصحابِ الأيْكةِ لم يَصِفْ شعيبًا بأنَّه أخوهم؛ إذ لم يكنْ شعيبٌ نسيبًا ولا صهرًا لأصحابِ الأيْكةِ، وهذا إيماءٌ دقيقٌ إلى هذه النكتةِ).

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿177﴾

(إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ) أي: حينَ قال لهم شُعَيبٌ: ألَا تتَّقونَ اللهَ، وتَحذَرونَ عِقابَه. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: في قَولِه تعالى: إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إنَّما لم يَقُلْ هنا: أخوهم شُعَيبٌ؛ لأنَّهم نُسِبوا إلى عبادةِ الأَيْكةِ، وذلك على اعتبارِ أنَّ مَدْيَنَ هم أصحابُ الأيْكةِ.

وقيل: لم يقُلْ: (أخوهم)؛ لأنَّه لم يكُنْ مِن أصحابِ الأيْكةِ في النَّسَبِ، فلمَّا ذكَر مَدْيَنَ قال أَخَاهُمْ شُعَيْبًا؛ لأنَّه كان منهم، وذلك على اعتبارِ أنَّ مَدْيَنَ غيرُ أصحابِ الأيكةِ. وقيل غيرُ ذلك.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿178﴾

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) أي: إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه الذي بعَثَني به إليكم، فأبلِّغُكم ما أُرسِلتُ به إليكم بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ. موسوعة التفسير

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿179﴾

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه. موسوعة التفسير

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿180﴾

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) أي: وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ ثوابٍ وجَزاءٍ. موسوعة التفسير

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) أي: ما أرجو ثوابي إلَّا مِن اللهِ الخالِقِ الرَّازِقِ، المالِكِ المدَبِّرِ لجميعِ العالَمينَ دونَ خَلقِه. موسوعة التفسير

قال البيضاوي: خاطَب كلُّ رسولٍ به قومَه؛ إزاحةً للتهمةِ، وتمحيضًا للنصيحةِ؛ فإنَّها لا تنجعُ ما دامَت مشوبةً بالمطامعِ.

قال القرطبي: إنَّما كان جوابُ هؤلاء الرُّسُلِ واحِدًا على صيغةٍ واحدةٍ؛ لأنَّهم مُتَّفِقونَ على الأمرِ بالتَّقوى، والطَّاعةِ، والإخلاصِ في العبادةِ، والامتِناعِ مِن أخذِ الأجرِ على تبليغِ الرِّسالةِ.

قال محمد الأمين الشنقيطي: وَيُؤْخَذُ مِن هَذِهِ الآياتِ الكَرِيمَةِ: أنَّ الواجِبَ عَلى أتْباعِ الرُّسُلِ مِنَ العُلَماءِ وغَيْرِهِمْ أنْ يَبْذُلُوا ما عِنْدَهم مِنَ العِلْمِ مَجّانًا مِن غَيْرِ أخْذِ عِوَضٍ عَلى ذَلِكَ، وأنَّهُ لا يَنْبَغِي أخْذُ الأُجْرَةِ عَلى تَعْلِيمِ كِتابِ اللَّهِ تَعالى، ولا عَلى تَعْلِيمِ العَقائِدِ والحَلالِ والحَرامِ.

⇦وإنْ دَعَتْهُ الحاجَةُ أخَذَ بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ مِن بَيْتِ مالِ المسْلِمِينَ؛ لِأنَّ الظّاهِرَ أنَّ المَأْخُوذَ مِن بَيْتِ المالِ مِن قَبِيلِ الإعانَةِ عَلى القِيامِ بِالتَّعْلِيمِ لا مِن قَبِيلِ الأُجْرَةِ. والأوْلى لِمَن أغْناهُ اللَّهُ أنْ يَتَعَفَّفَ عَنْ أخْذِ شَيْءٍ في مُقابِلِ التَّعْلِيمِ لِلْقُرْآنِ، والعَقائِدِ، والحَلالِ والحَرامِ، والعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعالى.

"عن أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ علَّمتُ رجلًا القرآنَ فأَهدى إليَّ قوسًا فذَكرتُ ذلِكَ للنبيِّ فقالَ إن أخذتَها أخذتَ قوسًا من نارٍ فرددتُّها". السلسلة الصحيحة

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ﴿181﴾

(أَوْفُوا الْكَيْلَ) أي: قال شُعَيبٌ لِقَومِه: أتِمُّوا للنَّاسِ حقَّهم كامِلًا عندَ الكَيلِ. موسوعة التفسير

(وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) أي: ولا تكونوا مِمَّن يَنقُصُ النَّاسَ حُقوقَهم. موسوعة التفسير

قال البقاعي: (مِنَ الْمُخْسِرِينَ أي: الذين يُخسِرون... بنَقصِ الكَيلِ، أو غيرِه من أنواعِ النَّقصِ مِن كُلِّ ما يوجِبُ الغَبْنَ، فتكونوا مشهورينَ بذلك بينَ مَن يَفعَلُه).

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ ﴿182﴾

(وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) أي: وَزِنوا للنَّاسِ -إذا وزَنْتُم لهم- بالميزانِ العادِلِ، الذي لا مَيْلَ ولا انحرافَ فيه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ [الرحمن: 9].

قال ابن عثيمين: (الفَرقُ بيْنَ الوَزنِ وبينَ الكَيلِ: أنَّ ما قُدِّرَ بالحجمِ فهو كَيْلٌ؛ لأنَّ المِكْيالَ تضَعُ فيه الشيءَ فيكونُ حجمُه هكذا، وأمَّا ما يقَدَّرُ بالثِّقلِ فيُسمَّى وزنًا).

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿183﴾

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) أي: ولا تَنقُصوا النَّاسَ شَيئًا مِن حُقوقِهم. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: (بخسُ أشياءِ النَّاسِ: غَبنُ منافِعِها، وذَمُّها بغيرِ ما فيها؛ لِيَضْطَرُّوهم إلى بَيْعِها بغَبنٍ... والبَخسُ: النَّقصُ والذمُّ... ومِن بَخسِ الأشياءِ أن يقولوا للذي يَعرِضُ سِلعةً سليمةً للبيعِ: إنَّ سِلعَتَك رديئةٌ؛ لِيَصرِفَ عنها الرَّاغبينَ فيَشتريَها برُخصٍ).

(وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) أي: ولا تَسْعَوْا في الأرضِ بمعصيةِ اللهِ، وتُكثِروا فيها الفَسادَ. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: دَليلٌ على أنَّ الوفاءَ في العُقودِ هو مِمَّا جاء في الشَّرائعِ السَّماويَّةِ السَّابقةِ واللَّاحِقةِ.

قال الشوكاني: (والعثيُّ في الأرضِ: يشمَلُ كُلَّ ما يقعُ فيها مِن الإضرارِ بالنَّاسِ، فيدخُلُ فيه ما في السِّياقِ مِن نقصِ المكيالِ والميزانِ).

قال ابن عاشور: سلَكَ شُعَيبٌ عليه السَّلامُ في نَهيِهم عن الفَسادِ مَسلَكَ التدرُّجِ، وهذا مِن أساليبِ الحِكمةِ في تهيئةِ النُّفوسِ بقَبولِ الإرشادِ والكَمالِ، فابتَدأ بنَهيِهم عن نوعٍ مِن الفسادِ فاشٍ فيهم، وهو

التَّطفيفُ، ثمَّ ارتقَى فنهاهم عن جِنسِ ذلك النَّوعِ، وهو: أكلُ أموالِ النَّاسِ، ثمَّ ارتقَى فنهاهم عن الجِنسِ الأعلى للفَسادِ الشَّاملِ لجميعِ أنواعِ المفاسدِ، وهو: الإفسادُ في الأرضِ كُلِّه.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿184﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن حيان: لَمَّا تقَدَّم أمْرُه عليه السَّلامُ إيَّاهم بتقوى الله؛ أمَرَهم ثانيًا بتقوى مَن أوجَدَهم، وأوجَدَ مَن قبْلَهم؛ تنبيهًا على أنَّ مَن أوجدَهم قادِرٌ على أنْ يُعَذِّبَهم ويُهلِكَهم

(وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ) أي: واتَّقوا اللهَ الذي خلَقَكم، وخَلَق الخَلْقَ الأوَّلينَ مِن قَبْلِكم. موسوعة التفسير

قال السعدي: (وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ أي: الخليقةَ الأوَّلينَ، فكما انفرد بخَلقِكم، وخَلْقِ مَن قبْلَكم مِن غيرِ مُشارِكٍ له في ذلك، فأفرِدوه بالعبادةِ والتوحيدِ، وكما أنعَمَ عليكم بالإيجادِ والإمدادِ بالنِّعَمِ، فقابِلوه بشُكرِه).

وقال ابنُ عثيمين: (ذكَّرهم الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ بالذي خَلَقَهم، وخَلَقَ الخَلْقَ الأوَّلَ أيضًا؛ إشارةً إلى أنَّكم ستَزولون كما زال مَن قبْلَكم، فأنتم مخلوقونَ مِنَ العدَمِ، وتعودونَ إلى العدَمِ).

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿185﴾

(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) أي: قال قَومُ شُعَيبٍ له: إنَّما أنت مِنَ المسحورينَ الذين بُولِغَ في سِحرِهم مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ، فلا عَقلَ لك، وإنَّما تَهذي بما لا مَعنى له. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: مُبالَغةٌ؛ فهي تُفيدُ أنَّه معدودٌ في زُمرتِهم، ومَشهورٌ بأنَّه مِن جُملتِهم.

كما قال تعالى: قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ [هود: 91].

﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿186﴾

(وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) أي: وما أنت إلَّا آدميٌّ مِثلُنا، فكيف خَصَّك اللهُ بالرِّسالةِ مِن بيْنِنا حتى نتَّبِعَك. موسوعة التفسير

(وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ) أي: ونحن نظُنُّك مِنَ الكاذِبينَ في زَعمِك أنَّك رَسولٌ مِن عندِ اللهِ. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: (أُطلِقَ الظَّنُّ على اليقينِ... وهو إطلاقٌ شائِعٌ، كقَولِه: الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ [البقرة: 46].

قال السعدي: (هذا جراءةٌ منهم وظُلْمٌ، وقَولٌ زُورٌ، قد انطَوَوْا على خلافِه؛ فإنَّه ما مِن رسولٍ مِن الرُّسُلِ واجَهَ قومَه ودعاهم، وجادَلهم وجادَلوه، إلَّا وقد أظهَرَ اللهُ على يديه مِن الآياتِ ما به يتيقَّنونَ صِدقَه وأمانتَه، خصوصًا شُعَيبًا عليه السلامُ، الذي يُسمَّى خطيبَ الأنبياء؛ لحُسنِ مراجعتِه قَومَه، ومجادلتِهم بالتي هي أحسَنُ؛ فإنَّ قومَه قد تيقَّنوا صِدقَه، وأنَّ ما جاء به حقٌّ، ولكِنَّ إخبارَهم عن ظَنِّ كَذِبِه كَذِبٌ منهم).

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾﴿187﴾

(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) أي: فأنزِلْ علينا قِطَعًا مِن السَّماءِ تُهلِكُنا، إنْ كُنتَ صادِقًا في أنَّك رَسولٌ مِن عندِ اللهِ. موسوعة التفسير

قال الرازي: (وهُم إنَّما طَلَبوا ذلك؛ لاستِبعادِهم وُقوعَه، فظَنُّوا أنَّه إذا لم يَقَعْ ظَهَر كذِبُه).

﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾﴿188﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن حيان: لَمَّا طَلَبوا منه ما طلبوا؛ أحالَ عِلْمَ ذلك إلى اللهِ تعالى، وأنَّه هو العالِمُ بأعمالِكم، وبما تَستوجِبون عليها مِن العِقابِ، فهو يعاقِبُكم بما شاء.

قال البقاعي: وأيضًا لَمَّا كان عذابُ العاصي يتوقَّفُ على العِلمِ المحيطِ بأعمالِه، والقُدرةِ على نَكالِه؛ استأنَفَ تعالى الحِكايةَ عنه في تَنبيهِه لهم على ذلك بقَولِه:

(قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) أي: قال شُعَيبٌ لِقَومِه: ربِّي أعلَمُ بما تَعمَلونَه مِنَ الشِّركِ والمعاصي، ونَقصِ الكَيلِ والميزانِ، وهو مُجازيكم بأعمالِكم، ومُعذِّبُكم بها إنْ شاء، وما علَيَّ إلَّا تبليغُكم. موسوعة التفسير

كما قال اللهُ تعالى لنبيِّه مُحَمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: (وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) [الحج: 68].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾﴿189﴾

(فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) أي: فكذَّب قَومُ شُعَيبٍ نبيَّهم، فأهلَكَهم اللهُ بعذابٍ أظلَّهم، فهلَكوا مِن تحتِه. موسوعة التفسير

قال ابن القيم: (أخبَرَ تعالى عن العذابِ الذي أصاب به قَومَ شُعيبٍ بثلاثة أمورٍ، كُلُّها مؤنَّثةُ اللفظِ؛ أحدُها: الرَّجفةُ في قَولِه في «الأعراف»: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ [الأعراف: 78]. الثاني: الظُّلَّةُ بقوله: فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ [الشعراء: 189]. الثالثُ: الصَّيحةُ: وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ [هود: 67]. وجمع لهم بيْنَ الثلاثةِ؛ فإنَّ الرجْفةَ بدأَتْ بهم، فأصحَروا [خرَجوا] إلى الفضاءِ خوفًا مِن سقوطِ الأبنيةِ عليهم، فصهَرَتْهم الشمسُ بحرِّها، ورُفِعَت لهم الظُّلَّةُ، فأُهرِعوا إليها يَستظِلُّون بها مِن الشَّمسِ، فنزَل عليهم منها العذابُ وفيه الصَّيحةُ).

(فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) أي: إنَّ عذابَ يومِ الظُّلَّةِ الذي أصاب قَومَ شُعَيبٍ كان عذابَ يومٍ عَظيمِ الأهوالِ. موسوعة التفسير

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾﴿190﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال البقاعي: لَمَّا كان لتوالي الإخبارِ بإهلاكِ هذه القُرونِ، وإبادةِ مَن ذُكِرَ مِن تلك الأمَمِ، مِن الرُّعبِ ما لا يبلغُ وصْفُه، ولا يمكِنُ لغيرِه سُبحانَه شرحُه؛ قال تعالى مشيرًا إليه تحذيرًا مِن مِثلِه

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) أي: إنَّ في إهلاكِ قَومِ شُعَيبٍ لَدَلالةً واضِحةً على صِدقِ رَسولِه، وعِبرةً وعِظةً لِمن ينقُصُ في الكَيلِ والوَزنِ. موسوعة التفسير

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) أي: ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِ شُعَيبٍ مُؤمِنينَ. موسوعة التفسير

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾﴿191﴾

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) أي: وإنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ، المنتقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِّلُ معهم ما يُبَيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قَومًا إلَّا بعْدَ إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجِّي أتْباعَ رُسُلِه. موسوعة التفسير

قال البقاعي: كَرَّرَ سُبحانَه الخِتامَ بهذا الكَلامِ في هذه السُّورةِ ثمانيَ مرَّاتٍ؛ فلعلَّ مِن أسرارِه الإشارةَ إلى سبْقِ الرَّحمةِ للغَضَبِ.

ولأنَّ في التكريرِ تقريرًا للمعاني في الأنفُسِ، وتَثبيتًا لها في الصُّدورِ؛ فإنَّه لا طَريقَ إلى تَحفُّظِ العلومِ إلَّا تَرديدُ ما يُرادُ تحفُّظُه منها، وكلَّما زاد تَرديدُه كان أمكَنَ له في القلبِ، وأرسَخَ في الفَهْمِ، وأثبَتَ للذِّكْرِ، وأبْعَدَ مِنَ النِّسيانِ. ولأنَّ هذه القصصَ طُرِقَتْ بها آذانٌ وُقُرٌ عن الإنصاتِ للحَقِّ، وقُلوبٌ غُلْفٌ عن تدبُّرِه؛ فَكُوثِرَتْ بالوعظِ والتذكيرِ، ورُوجِعَتْ بالترديدِ والتكريرِ؛ لعلَّ ذلك يفتَحُ أُذُنًا، أو يَفْتُقُ ذِهنًا، أو يَصْقُلُ عَقلًا طال عهْدُه بالصَّقْلِ، أو يَجْلو فَهْمًا قد غطَّى عليه تراكُمُ الصَّدَأِ. الدرر السنية

وكرَّرَ ما كرَّرَ في أوائلِ هذه القصصِ؛ تَنبيهًا على أنَّ طريقةَ الأنبياءِ واحدةٌ لا اختلافَ فيها، وهي الدعاءُ إلى توحيدِ اللهِ وعبادتِه، ورفْضِ ما سِواهُ، وأنَّهم ورسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُشترِكونَ في ذلك، وأنَّ ما جاء به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو ما جاءتْ به الرسُلُ قبْلَه، وتلك عادةُ الأنبياءِ.

- وأيضًا جاءَتِ الألفاظُ في دُعاءِ كلِّ واحدٍ مِن هؤلاءِ الأنبياءِ واحدةً بعَيْنِها؛ إذْ كان الإيمانُ المدعوُّ إليه معنًى واحدًا بعَيْنِه.

قال أبو السعود: وقِصَّةُ شُعيبٍ آخِرُ القصصِ السَّبْعِ التي أُوحيَتْ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، المذكورةِ على سَبيلِ الاختِصارِ؛ تَسليَةً له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَهديدًا للمُكذِّبينَ به ، ولصرفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الحِرصِ على إسلامِ قومِه، وقَطْعِ رجائِه عنه، ودفْعِ تحسُّرِه على فواتِه؛ تحقيقًا لمضمونِ ما مرَّ في مَطلَعِ السورةِ الكريمةِ مِن قولِه تعالى: وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا ... [الشعراء: 5 -6] الآيةَ؛ فإنَّ كلَّ واحدةٍ مِن هذه القصصِ ذِكْرٌ مُستقِلٌّ، مُتجدِّدُ النُّزولِ، قد أتاهم مِن جهتِه تعالى بموجَبِ رحمتِه الواسعةِ، وما كان أكثرُهم مؤمنينَ بَعْدَما سمِعوها على التَّفصيلِ قصَّةً بعدَ قصَّةٍ، لا بأنْ يتدبَّروا فيها، ويَعتبِروا بما في كلِّ واحدةٍ منها مِنَ الدَّواعي إلى الإيمانِ، والزَّواجرِ عن الكُفرِ والطُّغيانِ، ولا بأنْ يَتأمَّلوا في شأنِ الآياتِ الكريمةِ النَّاطقةِ بتلك القصصِ على ما هي عليه، مع عِلمِهم بأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يسمَعْ شيئًا منها مِن أحدٍ أصلًا، واستمَرُّوا على ما كانوا عليه مِنَ الكُفرِ والضَّلالِ كأنْ لم يَسمَعوا شيئًا يزجُرُهم عن ذلك.

قصة شعيب -عليه السلام- مع قومه أهل مدين، وهم قبيلة عرب كانوا يسكنون أرض معان من أطراف الشام، وهذا الموقع في دولة الأردن حاليًا، وهذه الأرض كان أهلها مؤمنين صالحين، فتغير بهم الحال، ومرت بهم السنون، وطال بهم الأمد حتى ظهر الفساد في أهلها، وانتشر الشرك في جبلها وسهلها، وأظلمت القلوب واسودَّت النفوس، وتدنّس الناس بدنس المعاصي، وارتموا في أوحال الذنوب والشهوات.

فلما جلّ الخطب -أي كبر وعظم الشر- وفدح الأمر وعظم الفعل، أرسل الله -عز وجل- إليهم شعيبًا -عليه السلام-، وآزره بالمعجزات وأيده بالبينات.

فدعاهم -أول ما دعاهم- إلى تصفية العقيدة وتحقيق التوحيد لله -عز وجل- وإعلان العبودية لله وحده لا شريك له، ثم حذرهم من الذنوب التي تواطؤوا وتعوّدوا عليها، وصارت من عاداتهم وطبائعهم، ونهاهم عن المعاصي التي درجوا عليها، ألفتها نفوسهم وارتضتها قلوبهم، حتى أصبحت جزءًا من حياتهم، وشيئًا من كيانهم، بل أصبح إنكارها هو المنكر، وهي ذنوب مؤذنة بفسادهم ومعلنة باستحقاقهم أن يدمرهم الله -عز وجل-، ثم ذكَّرهم بنعم الله عليهم، وحدّثهم عن وجود المولى الله -عز وجل- عليهم، وانطلق في مسيرته الدعوية والقيام بواجبه الإصلاحي في يسر وترفُّق معهم ولين وتلطُّف، بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة؛ كما قال تعالى: وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [الأعراف: 85، 86].

- وقوم شعيب هم أصحاب الأيكة، حيث كانوا يعبدون الأيكة؛ وهي غيضة تنبت الشجر.
- في هذه الآية تتجلى أعظم المنكرات التي كان يقع فيها قوم شعيب حتى صارت هي الغالبة عليهم وهي:

أولاً: الشرك بالله تعالى وعبادة غيره معه.

ثانيًا: عدم إيفاء الكيل والميزان في البيع والشراء، أي الغش فيما بينهم مع ما جاءهم من البينات والمواعظ والنصح، فقد كانوا إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون -أي ينقصون الميزان- ، وهذا من الذنوب العظيمة التي توعّد الله أصحابها بالويل والهلاك، والتي هي واقعة إلى يومنا هذا.

ثالثًا: بخس الناس أشياءهم، والبخس: النقص، وانظروا إلى روعة كلمة (أشياء)، فليس شرطًا أن يكون ذلك البخس للحقوق المادية فقط، بل تتنوع مظاهر بخس الناس أشيائهم وهضم حقوقهم، سواء كان ذلك في الأمور المادية أو في الأمور المعنوية، وبخس الناس قد يكون بالعيب للسلعة أو التزهيد فيها، أو تنقيص قيمتها، أو المخادعة لصاحبها أو الاحتيال عليه، وكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل.

رابعًا: تعمُّد الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، وتعمد إفساد أهلها، وإبعادهم عن دينهم، وجرهم إلى الرذيلة، ودعوتهم إلى الخطيئة، وكانوا يتوعدون من يخالفهم من الناس بالعذاب، ويقصدون من يذهب إلى شعيب -عليه السلام-، أو يستمع إليه، ويتبعه ويؤمن به.

خامسًا: القعود في وجه الدعوة إلى الله والحرب على أنصارها وأتباعها، والحملة الجادة للصد عن سبيل الله والسلوك بالناس والحياة الطريق الأعوج، والبعد عن الطريق المستقيم، فقد جمعوا أسوأ المعاصي وأخطر الآثام، وأقبح الذنوب: الشرك بالله، والصد عن سبيله، وأكل حقوق عباد الله، وبخس الناس أشياءهم.

⇦وقد سلك شعيب -عليه الصلاة والسلام- مع قومه كل السبل لدعوتهم والتأثير في نفوسهم بقلب مشفق عليهم ونُصح مترفق بهم، وذكَّرهم بالله ومعجزاته الصادقة، وبيّن لهم أنه واحد منهم، وأن الرائد لا يكذب أهله، وابن العشيرة لا يخون عشيرته، وذكَّرهم بنعم الله عليهم، وأنهم كانوا قليلين مستضعفين في الأرض لا قوة لهم ولا قيمة ولا حول ولا طول، فكثرهم وآزرهم ونصرهم وذكرهم بمصارع الأمم السابقة قبلهم، وحذّرهم أن يصيبهم ما أصابهم، وفي ذلك يقول الله تعالى: (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ)[هود:89].

فهذه الأمم أهلكهم الله -عز وجل- بسبب كفرهم وشركهم وعدم إيمانهم بالله وعمل المعاصي العظيمة، وآخرهم والأقرب إلى قوم شعيب -أي الذين قبلهم بوقت ليس بكثير- أهلكهم الله وقد كانوا قريبين أيضًا من قوم شعيب في البحر الميت حاليًا -والله أعلم-، بين فلسطين والأردن حاليًا، وهم قوم لوط.

ثم أمرهم بالاستغفار، بل بكثرة الاستغفار؛ لأن الاستغفار أمر عظيم، ودعاهم إلى التوبة إلى الله من الذنوب والمعاصي، وبيّن لهم أن الله تعالى رحيم ودود وسعت رحمته كل شيء، فلم تنفع فيهم الدعوة ولم تثمر فيهم الموعظة، ولم تُجْدِ فيهم النصيحة، قال تعالى: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا)[الأعراف:88]، فهذا رد المتكبرين المتغطرسين، ويسير وراءهم الغوغائيون، فوقفوا في وجه شعيب واستهزؤوا بقوله وسخروا منه ومن قوله، وتهكموا به فقالوا ما معناه: إن دعوتك وعبادتك وصلاتك لن تكون مهيمنة على أعمالنا وسلوكياتنا، وإننا سنعامل الناس بما نشتهي، ولن ندع ما تعودنا عليه، ومن ذلك تكثير أموالهم بطرق غير مشروعة، وهي غش الناس وأكل أموال الناس بالباطل من ربا ورشوة وغش وغيرها، فهذه الأمور خبيثة في ذلك الزمان وفي كل زمان، ومع كل ذلك تحمل شعيب -عليه السلام- جفوة قومه وصبر على آذاهم وقال لهم: إنه لن ينتهي عن دعوتهم إلى الخير، ولن يكرههم على اتّباعه، ولن يفعل ما ينهاهم عنه، ولا يريد منهم جزاءً على ذلك، قال تعالى: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) [هود:88].

فلما وعظهم وأحسن موعظتهم وجادلهم فأحسن جدالهم، وأظهر لهم فساد اعتقادهم، وبيّن لهم عاقبة ظلمهم، وخوّفهم من بأس الله تعالى وعذابه، وأيده الله -جل وعلا- بالحجة البالغة والآيات البينة والبرهان

الساطع، لجؤوا إلى المراوغة في القول، ومدافعة الحجة بالشتم والبينة بالسباب والتمرد على الموعظة بالمغالطة؛ قال تعالى: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) [هود:91].

فهم يقولون له: لا سبيل لكلامك إلى قلوبنا، ولا ينفذ إلى عقولنا، وأنت مستضعف ذليل بيننا، ولم يمنعنا من إلحاق الأذى بك إلا مكان عشيرتك منا وحرمة قبيلتك.

ورد عليهم قائلاً كما جاء في قوله تعالى: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا) [هود:92]، ولم يقل عزمه، بل تحداهم ودعاهم إلى أن يبذلوا كل ما يستطيعون لإيصال الشر إليه، واستمر قومه في الكفر، وتمادوا في الضلال والسخرية من شعيب وأتباعه، وهددوه بالرجم والطرد من البلاد، فقال الله تعالى عنهم: (وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) [الشعراء186 :187].

ثم حلّت بهم العقوبة، وجاءتهم النقمة، فابتلاهم بالحر الشديد، فكان لا يروي ظمأهم ماء، ولا تمنعهم ظلال، ولا تقيهم المنازل، ففروا هاربين من الحر، وخرجوا مسرعين من الجحيم، ولم يعلموا أنهم إنما فروا إلى حتفهم وخرجوا إلى هلاكهم، فقد تجلّت لهم سحابة في السماء فظنوا أنها واقية لهم من الشمس دافعة للحر، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها ويستروحوا، ويستبشروا بغيثها الهنيء المريء، حتى إذا تكامل عددهم، واجتمعوا كلهم، رمتهم بشرر وشهب، وأمطرتهم بعذاب وسخط، وجاءتهم صيحة من السماء، وأحسوا الأرض تتزلزل تحت أقدامهم، فاشتد خوفهم وعظم قلقهم، وطاشت عقولهم وذعرت نفوسهم، وخارت أقدامهم، وجاءتهم الصيحة وأخذتهم الرجفة، فعلا صياحهم، وضج بكاؤهم، وارتفع نحيبهم، فدمرت أجسادهم، وزهقت أرواحهم: (فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)[هود:67]، وقال الله تعالى عنهم: (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ) [الأعراف:92] .

فلما رأى شعيب ما حل بقومه أعرض عنهم، وأثقله الحزن على ما أصابهم، وتذكّر كفرهم وعنادهم واستهزاءهم به وإساءتهم إليه، ثم تولى عنهم وقال كما قال الله تعالى عنهم: (وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ) [الأعراف:93].